

## البلاغة العربية بين الثابت والمتحول : قراءة في الطرائق التعليمية

### Arabic Rhetoric between Fixed and Transformed: A Reading in Educational Methods

د. آسيا بن عبدي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

الملخص:

إنّ المكونات الجمالية ليست في حاجة إلى وظيفة جمالية أو تأثير فعلي لكي تكتسب صفة البلاغة أو لكي تبرّر انتسابها للحقل البلاغي ، فالبلاغة لا يمكن اختزال جوهرها في مفهوم التأثير الفعلي حتى لو كان أرسطو قد أقرّ بأنّ البلاغة دراسة للكلام الفعّال أو الخطاب العملي ، باعتبارها صناعة موضوعها الإقناع . إلا أنّ الانقسام الذي حدث في جسم البلاغة القديمة منذ القرن الثامن عشر قد كان نتيجة حتمية لتغيّر وظيفة الأدب إذ تحولت البلاغة إلى دراسة الأسلوب بدل الحجاج . غير أنّ المناهج التعليمية اليوم التي تناولت بالتلقين الدرس البلاغي قد وقعت في شرك القوالب الجامدة والقواعد الثابتة التي غدت تنفيها للمتعلّم من البلاغة بعد أن كانت ترغيبا وإعجابا واستمتعا بجمالياتها .

من هذا المنطلق تسعى هذه المداخلة إلى الحفر في أغوار الطرائق التعليمية للبلاغة العربية من أجل تحديد الصعوبات التي تحدّد من تطوير وسائل تلقين هذه البلاغة .

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الطرائق التعليمية، الطرق القديمة، الطرق الجديدة

#### Abstract :

The aesthetic components of the literary text do not need an aesthetic function or influence in order to acquire the quality of rhetoric can not be reduced to influence only. So arabic rhetoric fell into trap of rigid stereotypes that have become dependent on indoctrination, therefore educational curricula that wish the learner to study rhetoric must be discovered . However, the split that occurred in the body of ancient rhetoric since the eighteenth century was an inevitable result of a change in the function of literature, as rhetoric shifted to the study of style instead of argumentation. However, the educational curricula today that dealt with indoctrination of the rhetorical lesson have fallen into the traps of rigid stereotypes and fixed rules that have become an aversion to the learner of rhetoric after being desirable, admired and enjoying its aesthetics.

From this standpoint, this article seeks to dig into the depths of the educational methods of Arabic rhetoric in order to identify the difficulties that limit the development of means of teaching this rhetoric.

**Key words:** Arabic rhetoric, educational methods, old methods, new methods

أولاً: الثابت /البلاغة هي الإيضاح:

لعلّ تطبيقات البلاغة العربية قد نشأت بنشوء الأدب نفسه، ممثلاً في الشعر بالدرجة الأولى فقد انبرى شعراء العصر الجاهلي يزينون مجالسهم بمشاهد بلاغية وكذلك أحكامهم النقدية التي تعتمد فنيات بلاغية غاية في الجمال على الرغم من تداخلها مع علوم اللغة المختلفة .

من أجل ذلك كانت ضرورة خضوع الشاعر لمقاييس فنية بعينها وحرصه على تطبيقها هو بحث في جوهر البلاغة، وحتى لو لم يتفطن الشعراء في ذلك الوقت النصوص إلى أنها يمكن أن تكون علماً تتأسس عليه بقية النصوص وتتبع قوانينه في الكشف عن جمالياتها .

على هذا الأساس كانت المقاييس الذوقية التي تقوم عليها الفطرة العربية هي ما يمكن تسميته اليوم فنيات الكتابة الأدبية ، فكان التقليد المتبع في الوقوف على الأطلال مثلاً بلاغة ، الدليل على ذلك قول أبي نواس:

صفة الطلول بلاغة القدم \*\*\*\*\* فاجعل صفاتك لابنة الكرم

لاتخدعنّ عن التي جعلت \*\*\*\*\* سقم الصحيح وصحة السقم (1)

فالإنسان العربي يدرك تمام الإدراك مجالات تحرك البلاغة وحدودها على الرغم من عدم وقوعها في دائرة العلمية والمنهجية.

إلا أن الأمر تغير في العصر العباسي عمّا كان حلية خاصة مع وجود عاملين رئيسيين :

أولهما: ظهور الدراسات القرآنية التي أدت إلى التعامل مع الإعجاز اللغوي القرآني من جانب المستوى البلاغي باعتباره منبع البلاغة الحقيقية ، والمنوال الذي ينسج عليه الأدب، وهذا ما فعله العلماء أمثال الباقلاني والرماني وعبد القاهر الجرجاني .

ثانيتها : الاتّصال بالثقافة اليونانية خاصة كتابي أرسطو فن الشعر والخطابة الذي حدّد فيه معالم البلاغة فجعلها صناعة موضوعها الإقناع لأن هدفها هو الخطاب العملي والكلام الفعال.

## الملتقى الوطني حول إشكالية تعليمية البلاغة العربية - الواقع والمأمول

من هذه الزاوية كان التوجه نحو القرآن الكريم هو سمة هذا العصر على مستوى التفسير أو البحث عن وجوه الإعجاز ودلائله، حتى انتشرت فكرة أنّ البحث في النص القرآني هو فرض عين على كلّ مسلم ولهذا يجب العودة إلى النص القرآني بالدراسة للكشف جماليات الخطاب الإلهي التي لا يمكن الوصول إليها إلا عبر البلاغة .

وهكذا صارت البلاغة علما مقدّسا استمدّ قدسيته من قدسية القرآن الكريم، يقول أبو هلال العسكري في مقدّمة كتابه الصناعتين: " أحقّ العلوم بالتعلّم وأولاها بالتحقّظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز الله تعالى " (2)

أمّا الاتصال بالثقافة اليونانية فقد أدّى إلى إخضاع كل الشعريات العربية إلى الشعرية اليونانية ممثلة في أرسطو ، وفي هذا المجال سجل "قدامة بن جعفر" صاحب كتاب " نقد الشعر" الأسبقية بتعرضه لكلّ فنيات الكتابة الشعرية ابتداء من تعريف الشعر ووصولاً إلى صورته البلاغية وذلك من وجهة نظر فلسفية بحثت أدّت إلى تفسيرات أقلّ ما يقال عنها أنها تنظيرية أكثر منها تطبيقية .

## توجهات البلاغة القديمة:

لطالما حملت البلاغة القديمة همّ الحجاج بالدرجة الأولى إذ هي فعل إقناعي ، وبالتالي كان توجيهها الأول هو الإيضاح على حدّ تعبير القزويني ، فالشاعر يلجأ إلى الصور البيانية قصد توضيح المعنى وإصابته من أقرب مرمى ، وخير دليل على ذلك قول ابن رشيق في تعريف التشبيه: " والتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك " (3)

ولأنّ البلاغة هي سعي إلى بلوغ المرتبة الأعلى في القول ، وهي قبل هذا وذاك تهدف إلى التبليغ والإيصال ، فإنها اعتمدت على تجويد الكلام وموافقته للمقام ، وبالتالي فقد تداخلت مع علوم لغوية وأدبية أخرى كالفصاحة والبديع والإيجاز وغيرها ، واكتسبت مصطلحات كثيرة من خلال دراسة العلماء لأيّ القرآن الكريم قبل أن تستقرّ على ما هي عليه مع عبد القاهر الجرجاني الذي أرسى دعائمها ووضع أسسها .

## الملتقى الوطني حول إشكالية تعليمية البلاغة العربية - الواقع والمأمول

لكن جل الدارسين يجمع على أنّ علم البلاغة بدأ يعرف حدوده الأولى وسماته على يد المتكلمين ، وهذا ما يثبت سعي البلاغة في اتجاه الحجاج والجدل والإقناع ، لهذا فقد كان لها بعيد الأثر عند طبقة المتكلمين و المعتزلة خاصة وهو الشيء الذي جعل قواعدها الأولى ومصطلحاتها توضع من قبل "النظام" ثم الجاحظ الذي يعرفها بقوله: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه (...). فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة" (4)

كما تداخلت البلاغة بشكل كبير مع النقد الأدبي كونه يقوم على تمييز الجيد من الرديء في الوقت الذي تسعى فيه هذه البلاغة إلى وضع اليد على جيد الأدب وترك رديئه ، إلا أنّ الفاصل الوحيد بينهما هو كون البلاغة تعليمية تستند على قواعد تكتسب من أجل إنتاج كتابة أدبية متعالية لكن النقد هدفه وصف النصوص ودراستها .

لذلك غدت البلاغة تعليمية بالدرجة الأولى مثلها مثل علم الصرف والنحو حيث تسعى إلى تعليم مهارات تدوّق النصوص والكشف عن الصور البلاغية ، وفي الوقت نفسه اكتساب القدرة على ممارستها في النصوص الأدبية التي يحتجّ بها .

وقد وقفت البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني على أهم مكوناتها ، علم المعاني وعلم البيان قبل أن يضاف إليها علم البديع على يد ابن المعتز ، كما عرّف عبد القاهر فنونها وصورها بدقة مورداً لشواهد كثيرة شعرية ونثرية ، وذلك في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فغدت كتبه منارة للمتعلّمين يهتدون بها .

لكن البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني التزمت جانب النمطية وصارت قواعد يتبعها القارئ للكشف عن الصور البيانية التي تشكل جمالية الإبداع دون إعطائها بعدها التأويلي الذي ينأى بها عن هذه الممارسات الجافة والخالية من روح الأدب .

تحول البلاغة :

## الملتقى الوطني حول إشكالية تعليمية البلاغة العربية - الواقع والمأمول

شهد القرن الثامن عشر انقساماً كبيراً في جسم البلاغة العالمية ، فتحوّلت من دراسة الحجاج إلى الأسلوبية اللغوية ممثلة في دراسة أساليب الخطاب الأدبي مما سبّب " تضيقاً للبلاغة القديمة واختزالاً لمفهوماتها ، وتقويضاً لأساسها النظري باعتبارها نظرية للخطاب الحجاجي من حيث المقاصد والبناء والأسلوب " (5)

وقد جاء هذا التغيير بسبب تحول الأدب عن وظيفته الاجتماعية وابتعاده عن الإقناع ، فكان على البلاغة أن تسترجع بعدها الحجاجي لتجمع بين أدبية النص وسماته الأسلوبية أي الجانب الجمالي وجانب الإقناع الذي طالما سعى إليه الحجاج ، مما جعل البلاغة تسترجع بعض أهميتها التي فقدتها .

على أنّ حازم القرطاجني كان قد وحد بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية منذ زمن طويل ، فلم تعرف البلاغة العربية أبداً هذا الفصل بين شقّيها كما عرفته البلاغة الغربية .

لهذا فقد اهتمت البلاغة العربية بالصور البيانية التي أسست لهذا البعد الحجاجي ، فسار الفعلان معا: الجمالي والإقناعي، فالبلاغة بهذا الشكل تتكئ على ركيزتين : جمالية التعبير والحجاج أي البعد الجمالي والبعد التداولي بالتعبير المعاصر ، فالصورة الشعرية في الشعر القديم مهما كانت جماليتها لا يمكن أن يحتفى بها إلا إذا وافقت العرف أي إذا اكتسبت البعد التداولي لأنّ الأدب كان له تأثير خاص في الناس في ذلك الوقت ، فهو بمثابة الإعلام اليوم .

من أجل ذلك سعى النقاد اليوم إلى توسيع النظرية البلاغية لتتجاوز الشعر وتشمل الأجناس الأدبية ومكوناتها وسماتها ولتخرج من عنق الزجاجة الذي وجدت فيه البلاغة حتى غدت مجرد " مبادئ كلية محدودة، فمفهومات التحويل والتغيير والاستبدال ، والانزياح والاختيار التي استند إليها البلاغيون في تحديدهم لبلاغة الخطاب تعدّ مبادئ كلية لا تملك القدرة على تمثيل البلاغات النوعية التي تجسدها أنواع أدبية مختلفة" (6) .

من هذه الزاوية حاول البلاغيون اليوم ال خروج البلاغة من مأزقها بانفتاحها على بقية الخطابات خاصة الخطاب الروائي ن والاستفادة من علوم أخرى كاللسانيات والسيميائيات كما فعل هنريش بليث في نموذج البلاغي .

## الطريقة التقليدية في تعليم البلاغة:

لما كانت البلاغة القديمة سواء عند العرب أو عند الغرب تقوم على أسس تعليمية تلقينية بالدرجة الأولى ، فإنها اعتبرت من علوم اللغة التي يجب أن تلقن للمتعلم حتى يستطيع محاورة النصوص الأدبية في مختلف جوانبها البلاغية كما جاءت في كتب القدماء التي استقرت عند علوم البلاغة (علم المعاني ، علم البديع ، علم البيان ) عند السكاكي وتلميذه الخطيب القزويني الذي وصف البلاغة في عبارته المشهورة: "البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" .

وهكذا أضحت البلاغة جزءا لا يتجزأ من علوم اللغة التي ينبغي أن تلقن إلى المتعلم حتى يمتلك القدرة على فهم الأدب وإنتاجه، ولهذا فهي تخضع في تعليمها إلى المناهج التي تدرّس بها علوم اللغة على أساس أن اللغة العربية كل متكامل وما هذه التقسيمات إلا مجرد تقسيمات عملية هدفها تسهيل تعليمية اللغة وأدائها على المتعلم حتى يتمكن من استيعابها .

وقد اهتمت هذه البرامج التي استثمرت في تعليم البلاغة بتعريف البلاغة ثم تعيين فنونها انطلاقا من علومها الثلاثة وذلك وفق شواهد شعرية ونثرية من التراث حتى يصل المتعلم إلى مهارة استخراج الصور البلاغية التي تؤسس جمالية الكتابة الأدبية .

من هذا المنطلق وامتدادا للطريقة النمطية القديمة سطرت أهداف كثيرة لتمكين المتلقي من الدّرس البلاغي تمثلت خاصة في :

- تنمية ملكة التعبير عند المتعلم اكتسابا وإنتاجا وذلك بتمكينه من أدوات البلاغة .
  - الكشف عن جماليات النصوص الأدبية وطرائق تأليفها .
  - فهم أهمية البلاغة في توضيح المعنى ونقله من المجرد إلى المحسوس .
- وبالرغم من تطور وسائل التدريس إلا أنّ تدريس البلاغة قد بقي يسير على الطريقة التقليدية ، ولعلّ هذا الأمر هو الذي نقرّ المتعلم من لأنه أصبح يمارس تمارين جافة كالتمارين الرياضية

الملتقى الوطني حول إشكالية تعليمية البلاغة العربية - الواقع والمأمول

مما جعل الأدب ينزع شيئا فشيئا إلى التخلي عن الروح التي تميزه ليغدو مجرد تطبيقات يسعى المتلقي إلى حفظها ثم تطبيقها على كل الأعمال الأدبية .

ثانيا: الطرائق الجديدة في التدريس/البلاغة الإنتاجية :

بسبب النمطية التي اكتسبتها طريقة تعليم البلاغة في كل أنحاء العالم اضطرت فرنسا في القرن التاسع عشر إلى توقيف تدريس البلاغة في مدارسها ، وهو ما يدلّ على انسحاب البلاغة من كافة نواحي الحياة ، وحتى وإن بقيت مستمرة على مستوى دول أخرى فاستمرارها مجرد وجود واعتراف بحقل معرفي كبير وقديم جدا .

وسرعان ما أدرك العلماء مع بداية القرن العشرين حاجة الدراسات إلى البلاغة فأخذوا على عاتقهم إعادة إحيائها بعد عجز الأسلوبية عن تعويضها خاصة على مستوى جنس الرواية الذي لم تستطع الأسلوبية السيطرة على انفتاحه وكذلك فشلها في مواجهة أجناس أدبية سردية أخرى وتعرضها لمشكلات كبيرة على مستوى دراستها

لذلك فالعودة إلى تجديد البلاغة بموجب الأبحاث الجديدة في الحجاج يتطلب محاولة إعطاء مفهوم جديد للنص الأدبي لأن البلاغة تحتاج إلى مفهوم جديد يتناسب مع بروز العديد من الخطابات داخل المجتمع كالخطاب السياسي والخطاب الإعلامي والإشعاري بالدرجة الأولى، كل هذا أدى إلى إعادة التفكير في البلاغة ، والبحث عن بلاغة جديدة تطبّق على الرواية والمسرح أيضا .

والسؤال المطروح : هل البلاغة قواعد لقراءة الأدب أم هي محاولة لإنتاج نصوص أدبية بليغة؟

من هذا المنطلق وللجمع بين هذا وذاك تطلّب الأمر تجاوز الطريقة التقليدية في تعلّم البلاغة التي كانت تركز على تقديم تعريفات للفن البلاغي ثم وصفه ثم إعطاء شواهد موضّحة لانتهاء بالتطبيقات ، وعلى هذا الطريق سار الكثير من البلاغيين المعاصرين بعد العسكري

## الملتقى الوطني حول إشكالية تعليمية البلاغة العربية - الواقع والمأمول

والسكاكي والرازي وغيرهم، ومنهم صلاح فضل في جمعه بين البلاغة وتحليل الخطاب، وعبد العزيز عتيق صاحب علم المعاني والبيان والبديع، وكذلك مصطفى المراغي، وعلي الجارم.

وقد أدت الطريقة القديمة إلى فقدان البلاغة لروحها وجمالياتها، وذلك بسبب فقدان الإحساس بالذوق، يقول مصطفى الصاوي الجويني أستاذ البلاغة بجامعة عين شمس بمصر: "إنّ الدرس الذوقي للبلاغة أمر له خطره وأن لم يكن للمدرس إحساس متوقّد بجمال النصوص تشع حرارته على فهم وذوق تلاميذه يصبح الدرس البلاغي باردا جامدا يتوقف عند استيعاب المصطلح البلاغي" (7).

على هذا الأساس تطلّبت العملية التعليمية الجديدة إخضاع الدرس البلاغي لطرائق التدريس الحديثة وذلك بالتركيز على صقل ذوق المتعلم، وإعداده لمواجهة أي نص أدبي، وذلك بالابتعاد به عن عملية التلقين التي تعود عليها وفق خطة معينة تعتمد على ما يلي:

- 1- التعرف إلى الفنون البلاغية وطرائق حضورها في النص الأدبي
  - 2- الاطلاع عليها في النصوص التراثية وتحديد جمالياتها في النص
  - 3- استخراجها من النصوص الحديثة والمعاصرة أيضا، والكشف عن التغييرات التي طرأت عليها.
  - 4- التأكد من استيعاب هذه الفنون عن طيق إنتاج تعبيرات ذاتية توظّفها.
- ولعلّ تطبيق هذه العملية يرتكز على تطوير مهارة التأويل عند المتلقي لأنها قادرة على إكسابه الكفاءة على مواجهة النصوص التراثية أو المعاصرة دون اللجوء إلى التطبيقات الجافة لأن الهدف الأول لهذه البلاغة الجديدة هو إنتاج نصوص وبالتالي الكشف عن جماليات الأدب أيضا وذلك بالاعتماد على الذوق.

فالبلاغة الجديدة قد تجاوزت النصوص التراثية إلى نصوص معاصرة تعتمد الغموض، فلم تعد البلاغة هي الإيضاح، هذا بالإضافة إلى وجود أجناس أدبية تتطلّب أدوات جديدة لتحليلها وللوصول إلى تدوّقها، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بممارسة البلاغة المتجاوزة لاستخراج التشبيهات والاستعارات وقراءتها قراءة عادية.



### الهوامش :

- 1- أبونواس ، الديوان ، دارصادر للكتاب ، بيروت ، لبنان ، 2009 ، ص : 341 .
- 2- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1989 ، ط : 2، ص : 09 .
- 3- محمد الصاوي الجويني ، البلاغة العربية : تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف الإسكندرية ، مصر ، 1985 ، ص : 85 .
- 4- الجاحظ ، البيان والتبيين ، الشركة اللبنانية للكتاب ، 1968 ، ص : 58 .
- 5- مجلة بلاغات ، مجموعة البحث في البلاغة والأدب بالقصر الكبير ، المغرب ، العدد : 01 ، ص : 11
- 6- المرجع نفسه ، ص : 15 .
- 7- محمد الصاوي الجويني ، البلاغة العربية : تأصيل وتجديد ، ص 20